



التغريب في منهجية الاستشراق في الفكر العربي الإسلامي (دراسة تحليلية نقدية)

ميلود حميدات *

ملخص

يتناول مقالنا هذا موضوع مناهج البحث وأدواته التي استخدمها المستشرقون مع قضايا الفكر الإسلامي، والتي بدا لنا أنها أقحمت قسراً في غير ميادينها، ووظفت عمداً لغير الغاية التي وُجدت من أجلها، إذ عمل أساطين التغريب والغزو الفكري على تحويل تلك المناهج لخدمة أغراض كانت في أغلبها تُسيء إلى قضايا الفكر الإسلامي.

والغريب، أن هذه الرؤية التغريبية انطلت على بعض مُفكرينا، فسقطوا بوعي أو من دون وعي تحت تأثير هذه النزعة التغريبية، معتقدين أن ذلك من صميم المنهج العلمي، فدافعوا عن بعض هذه الأفكار وتبنوا بعض أطروحاتها.

في هذا المقال محاولة تتبعية تحليلية نقدية لأهم المناهج التي عالجت موضوعات الفكر الإسلامي، مع تمثيل لأهم تطبيقاتها التعسفية وإبراز لمواطن الخلل في استخداماتها، وتنبيه إلى ضرورة احترام متطلبات المنهج العلمي التزيه

* نائب عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية مكلف بالبحث العلمي بجامعة الأغواط،

والتزام مبادئ الموضوعية، وتجنب الذاتية والتعسف في إطلاق الأحكام التي درجت عليها مؤسسات التغريب والغزو الفكري الغربية عندما يتعلّق الأمر بقضايا الفكر العربي الإسلامي.

مناهج المستشرقين في تناول قضايا الفكر العربي الإسلامي

استخدم دعاة التغريب وسائل ومناهج عدّة في تعاملهم مع قضايا الفكر الإسلامي، نظرًا إلى تنوع الموضوعات التي تناولوها والمجالات التي استهدفوها، لذلك كيفوا لكل مجال مناهجه ووسائله.

كما أنّ المناهج المستخدمة لا تكشف مباشرة عن صورتها، وإنما تتخفى تحت مصطلحات مغالطة؛ مثل: الموضوعية والعلمية والدقة، فيما يكشف تحليل طريقة استخدامها عن تعسف وتجاوز كبيرين. إذ استخدمت المنهجية العلمية في غير مكانها، فطبقت مثلاً على قضايا شاذة أو معزولة، ثمّ عمّت النتائج على الكلّ، على الرغم من أنّ تلك النتائج لا تصدق إلاّ عرضاً، ولم يكن مستخدمو تلك المناهج يستهدفون البحث عن الحقيقة وفاق أصول المنهج العلمي الدقيق، وإنما كانت تحرّكهم أهداف مشبوهة، وأفكار مسبّقة يعملون على إثباتها بتعسف ظاهر يجافي منطق البحث التزيه وأصول الموضوعية العلمية.

وفي هذا التحليل سنعمل بكلّ تجرّد وموضوعية على إثبات تلك الأعمال التي ذكرناها، من خلال تتبعنا للمناهج المختلفة، كما سنعرض مواطن التعسف في استخدامها.

1. المنهج العلماني:

يرتبط هذا المنهج بالفلسفة العلمانية التي ظهرت نتيجة الصراع الذي حدث في المجتمعات الغربية بين الكنيسة والمجتمع المدني، إذ كانت الكنيسة في القرون الوسطى تمارس سلطة دينية وديوية وفاق نظام تيوقراطي يجعل من البابا ممثلاً للإله، وتفسّر أفعاله على أنها أوامر إلهية.

لهذه الأسباب وغيرها حدثت الثورة على سلطة الكنيسة، وفُصلت السلطة الدينية عن السلطة المدنية، وأصبحت العلمانية فلسفةً ومنهجاً للتعامل مع القضايا تعاملاً لا دينياً.

وإذا كان المنهج العلماني قد ظهر لأسباب تاريخية خاصة بالحضارة الغربية

وتجاوزات الكنيسة آنذاك، فإنَّ الأمر يختلف تماماً في الحضارة العربية الإسلامية، وعلى الرّغم من ذلك يعمّم استخدام هذا المنهج في قضايا الفكر الإسلاميّ، مع ما في ذلك من تعسّف ظاهر. إذ يختلف الإسلام عن المسيحيّة، فالإسلام يؤكّد على التّوحيد والعلاقة المباشرة بين العبد وربّه من دون أيّ وساطة، فلا رهبانيّة في الإسلام ولا رجال دين يحتكرون الإيمان.

وعليه، فإنّه من الخطأ الحكم على الإسلام بما يُحكم به على المسيحيّة. ولكن، لا يعترف بعض المستشرقين بالفروق بين الإسلام والمسيحيّة، ويرجع ذلك إلى الجهل بعقيدة الإسلام وشريعته من جهة، وإلى آثار التّعصب الدّينيّ ضدّ الإسلام لدى العلمانيّين منهم من جهة أخرى. كما يعود ذلك إلى طبيعة منهجهم وفلسفتهم العلمانيّة التي لا تعترف بالدّين أصلاً، على الرّغم من أنّهم يغلفون منهجهم بمصطلحات العلميّة والموضوعيّة.

لذلك، استطاع المنهج العلمانيّ - بشعاراته العلميّة - أن ينفذ إلى كثير من مجالات الفكر الإسلاميّ، وجرى تمريره في أثناء الوجود الاستعماريّ إلى العالم العربيّ والتّبشير به منهجاً علمياً موضوعياً لإبعاد المضامين الأخلاقيّة والدّينيّة عموماً من مناهج التّعليم، وإبعاد التّعليم الدّينيّ بصفته بعيداً ومنفصلاً عن متطلّبات الحياة. والحقيقة أنّ استخدام هذا المنهج في قضايا الإسلام - من عقيدة وشريعة وتاريخ وأخلاق - فيه تعسّف كبير، وتجاوز خطير لطبيعة الحقائق الإيمانيّة والرّوحيّة التي تختلف في الإسلام عنها في الديانات الأخرى. كما أنّه استُخدم في القضايا الاجتماعيّة، ففرّغت البرامج التّربويّة والقوانين التّشريعيّة في المعاملات الاجتماعيّة والاقتصاديّة من روحها وقيمها الإسلاميّة.

كان الغرض من استخدام هذا النهج إلغاء كثير من الحقائق الإسلاميّة وإلحاقها بالعقائد المسيحيّة، ما أدّى إلى نتائج خطيرة، منها: التّشكيك في النّبوة والوحي ورفض التّشريع الإسلاميّ والحدّ من شأن اللّغة العربيّة وعدّها مصدر تخلف، والتّلوّيح بأنّ تطوير اللّغة يحصل وفاق منهج غربيّ، وغير ذلك من الشّبهات التي رددّها - ولا يزال - المستشرقون ومن تأثّر بهم.

2. المنهج المادّي:

يُعدّ المنهج المادّي حصيلة تطوّر المنهج العلمانيّ، إذ أنّ هذا الأخير وإن انفصل عن الحقائق الإيمانيّة وعادى الدّين وحصره في مجالات ضيّقة، فإنّه لم يبلغ

وجوده، وبقي التعايش بينهما، وهذا ما نلاحظه في المجتمعات الغربية الرأسمالية. فقد مهد الاتجاه العلماني لظهور الاتجاه المادّي الذي حضر بقوة، وتجسّد فلسفة ومنهجاً في الماركسيّة التي قدّمت نفسها نظريّة علميّة كفيلة بحلّ تناقضات الرأسمالية ومشاكل المجتمعات الإنسانيّة.

مع بداية القرن العشرين وانتصار الماركسيّة في روسيا القيصريّة، أصبح المنهج المادّي الماركسيّ يُقدّم - وفاق قوانين الجدل - على أنّه أدقّ نظريّة علميّة لتفسير التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع السياسيّ...¹. وبعد ذلك، أصبح نمطاً يكتسح العالم، ليمثّل بديلاً للفلسفات والمناهج الأخرى، مدعوماً بظروف سياسيّة واقتصاديّة² وشحنة من الشعارات العلميّة والاجتماعيّة³.

حاول البعض، في تعسف ظاهر، البحث عن فكرة الاشتراكيّة في الإسلام وتأويل النصوص الشرعيّة للتوفيق مع بعض قضاياها. وقد استطاع هذا المنهج أن ينفذ إلى مجالات التطبيق السياسيّ بتبني بعض الدّول العربيّة للاشتراكيّة وسيلةً للتنمية، ومحاولة تطبيقها نظاماً اقتصادياً مع احترام عقائد الدّين، مع ما في هذه المحاولة من تعسف.

وأصبحت الماركسيّة في السّتينيات وبداية السّبعينيات صرعة ذلك العصر، ووجهة كثير من المفكرين لإحداث التّغيير والتّقدّم في المجتمعات العربيّة، ومثال ذلك ما اقتنع به في تلك المدّة المفكر المغربيّ المعاصر عبد الله العرويّ بقوله: «الأمة العربيّة محتاجة في ظروفها الحاليّة إلى تلك الماركسيّة بالذّات، لتكون نخبة مثقّفة قادرة على تحديثنا ثقافياً وسياسياً واقتصادياً»⁴.

3. المنهج التّلفيقي:

هو منهج يستخدم كلّ الوسائل والخطوات لتحقيق أهدافه، ويتميّز باستخدام الشّبّهات المختلقة للحطّ من قيمة الحضارة العربيّة الإسلاميّة وتمييزها، وقد وُجد لهذه الغاية كونه يعتمد كلّ الوسائل الممكنة ولو كانت تجافي المنطق والعقل

1- ينظر: جورج بوليتزر وآخرون، أصول الفلسفة الماركسيّة.

2- ظروف حركات التّحرّر وتأييد الاتّحاد السّوفياتيّ لدول العالم الثّالث ضدّ المعسكر الرأسماليّ دفع الكثير من تلك الدّول إلى اعتماد النظام الاشتراكيّ بعد تحرّرها من الاستعمار.

3- قدّمت الماركسيّة نفسها على أنّها نظريّة علميّة لتفسير الاقتصاد والتاريخ، وصاحبها مصطلحات التّقدّم والعدالة الاجتماعيّة والتّحرّر والتّطوّر الاجتماعيّ.

4- عبد الله العرويّ، العرب والفكر التاريخيّ، ص 71.

والأخلاق. وركز هذا المنهج، بطبيعته الهجومية منذ البداية، على تهيمش وتقزيم الحضارات الشرقية في مقابل تصوير الحضارة الغربية المركز والأصل، وكل ما عداها تابع مهمّش.

كما شاع استخدام هذا المنهج في الدراسات المختلفة التي قام بها المستشرقون في مجالات الاقتصاد والفلسفة والتاريخ وعلم الإنسان. وكانت طبيعة منهجهم تتمثل بتغليب النتائج باسم المنهجية العلمية والموضوعية لإعطاء فكرة مفادها أن إنجازات العقل البشري في كل مجالات الفكر الإنساني لا تخرج عن العقل الغربي، أو ما يُطلق عليه الحضارة «الهيلنو-أوروبية»، وتالياً السقوط في عقدة التمرکز الأوروبي¹.

أدت تطبيقات هذا المنهج إلى ظهور نتائج خطيرة، منها على سبيل المثال:

- نفي الفلسفة والفلسف عن شعوبنا، وإن وجد فكر إبداعي أرجعوه إلى أصول يونانية غريبة وفاق نظرة عنصريّة.
- إرجاع الإسلام إلى أصول مسيحية أو يهودية، وعدّ التشريع الإسلامي مستمداً من أصول رومانية أو منطلق يونانيّ.
- تلفيق بعض قضايا التاريخ الإسلامي بغرض تشويهه، وعده تاريخ فتن وتفريق واختلاف.
- إحياء وقائع تاريخية معينة وحوادث محدودة في التاريخ، وعدها الأساس بناءً على روايات شاذة وشهادات خاطئة².

استطاع هذا المنهج أن يُكوّن رأياً عاماً غريباً معادياً لنا ولفكرنا، امتد تأثيره إلى أبناء الثقافة العربية الإسلامية أنفسهم. ولعلّ ما يحدث اليوم من تجاوزات إعلامية لعقائد المسلمين ومقدساتهم خير دليل على استخدامات هذا المنهج؛ مثل الرسوم المسيئة للنبيّ (ص) أو الأفلام المسيئة للمسلمين أو الاعتداءات المتكررة على القرآن أو على المسلمين ودينهم ورموزهم ومقدساتهم، إذ كلّها تصبّ في إطار واحد يتمثل بعمل الدوائر والمجموعات المعادية لثقافتنا لتكوين رأي عام غربيّ يُعادي الإسلام. ومع ذلك، تبقى حالات محدودة لا تُمثل إلا أصحابها.

1- ينظر في ذلك: سمير أمين، التمرکز الأوروبي نحو نظرية للثقافة.

2- ينظر: مجموعة من الباحثين، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية.

4. المنهج الجدالي:

إذا كان المنهج السابق يعتمد على التلفيق وردّ معطيات الثقافة العربية الإسلامية إلى الحضارة الغربية، فإنّ المنهج الجدالي هو منهج إثارة يعتمد على تحدي المسلمين في عقائدهم وأفكارهم وثقافتهم، وهو منهج قديم اعتمده المبشرون الأوائل؛ مثل «كريموند لول» (1232-1316 م) (Ramon Lull)، والمحدثون؛ مثل الأب «هنري لامانس» (1862-1937 م) (Henri Lammens)، وكثير من أتباعهم. برز هذا المنهج في وسائل الإعلام والصحافة والآداب والأفلام التي تُصوّر العرب والمسلمين بشتّى الأوصاف الشائنة؛ إذ «كثيراً ما يرتبط العربيّ إمّا بالفسق أو بالغدر والخديعة المتعطّشة للدم، ويظهر منحلاً... تاجر رقيق، راكب جمال، صرافاً، وغداً، متعدّد الظلال. هذه بعض الأدوار التقليديّة للعربيّ في السينما (الغربيّة)»¹.

إنّ طبيعة المنهج الجدالي هي الهجوم واعتماد المماحكات اللفظية، والتشكيك في العقائد أو المبادئ الأساسية في ثقافتنا؛ إذ «تُنشر الكتب والمقالات بانتظام عن العرب والإسلام من دون أن تمثّل تغييراً إطلاقياً بالقياس إلى المماحكات التي سادت القرون الوسطى وعصر النهضة»². وهو ما يبرز أنّه منهج استشراقيّ تبشيريّ معادٍ صراحة وبشكل مباشر لقيم مجتمعاتنا.

وهذا المنهج مفضوح نتيجة طبيعته العدوانيّة الصريحة لمقوماتنا، ولذلك يرى «مالك بن نبي» (1905-1973 م) أنّنا لم نكن نجد صعوبة كبرى في الردّ عليه لوجود تلقائيّة الدفاع، ورفض الأدب والفكر المهاجم لنا والرافض لمقوماتنا الفكرية³.

5. المنهج التاريخي:

إنّ الاهتمام بالتاريخ أمر طبيعيّ عند كلّ أمة، لأنّ التاريخ يحفظ تميّزها وهويّتها، ولذلك يُقال التاريخ ذاكرة الأمة. والحقيقة أنّه لم تهتمّ أمة من الأمم بالتاريخ كما اهتمّت به الأمة العربية الإسلامية، نظراً إلى ارتباط مفهوم التاريخ بالإسلام لدى المسلمين.

1- إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 287.

2- المرجع نفسه، ص 287.

3- Malek Ben Nabi, L'œuvre Des orientalistes son Influence sur la pensée Islamique, p. 6.

ونظراً إلى ثراء التاريخ الإسلامي، فقد استخدم المنهج التاريخي للتاريخ لمذاهب وتيارات وشخصيات هدامة، كما استخدم هذا المنهج لتأكيد أفكار مسبقة ومواقف خاطئة، مثل تصنيف تاريخ الإسلام تاريخ حروب وفتن وتيارات وفرق، والتركيز على هذه المحطات وعدّها أساس التاريخ الإسلامي وإغفال غيرها من العصور الوسطى الذهبية.

كما ويُسْتَغَلُّ هذا المنهج في ميدان الفكر الفلسفي في الإسلام لإثبات عدم وجود فكر وفلسفة غير الفكر والفلسفة اليونانية¹، وأنّ الفلسفة الإسلامية مُقلِّدة لا إبداع فيها، ولم يكن الاهتمام بالفكر الفلسفي في الإسلام لذاته وإنما لخدمة فكرة مركزية الحضارة الغربية، ولإثبات أنّ الفلسفة الإسلامية تُشكِّل حلقة حفظت - في اعتقادهم - الفلسفة اليونانية من الأندثار لنقلها إلى أوروبا، لا أكثر.

لم يستخدم كثير من المستشرقين المنهج التاريخي لإحياء التراث الفكري الإسلامي كما يعتقد البعض خطأً، وإنّما كان بالنسبة إليهم منهج استكشاف لما يعتقدونه فكراً يونانياً أو أوروبياً في الفكر الإسلامي. ونتج عن ذلك نفي أي إبداع أو أصالة في الحضارة العربية الإسلامية. كما اعتمد على المنهج التاريخي لمعرفة العقيدة والشريعة من خلال النصوص الشرعية والتراث الفكري؛ وذلك لاصطياد الشبهات والزوايات الضعيفة لاعتمادها في الهجوم على الإسلام.

6. المنهج التمجيدّي:

وهو من أخطر مناهج التغريب، لأنّه يستطيع أن ينفذ ويخترق نسقنا الدفاعي ويؤثر على المفكرين المسلمين وعلى الناس العاديين، ذلك لأنّ هذا المنهج يعتمد على المدح والتفخيم والتبرير المبالغ فيه للحطّ من قيمة الموضوعات الإسلامية التي يدرسها. وقد امتدّ تأثير هذا المنهج إلى بعض المفكرين المسلمين الذين اقتنعوا بكثير من أطروحات أصحاب المنهج التمجيدّي وفروضهم ونتائجهم.

إنّ الأعمال التي قدّمها المستشرقون والمفكرون الغربيون في إطار هذا المنهج التمجيدّي تُقدّم دائماً على أنّها في صالحنا، وأنّها بريئة من أيّ غاية تغريبية، وأنّها تستخدم آخر ما وصل إليه العلم من مناهج ووسائل؛ ولذلك استطاعت تلك الأعمال أن تصير مرجعاً ومصدراً في البحوث التي يُقدّمها بعض مُفكّرنا. فيقول مثلاً المفكر العربي المعاصر عبد الله العروي: «إنّ الأيدولوجيا العربية لا تنمو إلا بالتفاعل المتبادل

1- ينظر: ج. دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص 51.

مع الحركة الاستشراقية... إذ إنَّ عمل «لويس ماسينيون» (Louis Massignon) (1883-1962م) وأعمال أولئك الذين ينتسبون إليه صراحة أم لا، هي الأعمال الأشرف والأروع والأقرب إلى قلوبنا، قد أنتجها اتصال أوروبا بالشرق العربي¹. يمكن الإشارة إلى أن إبراز تطبيقات هذا المنهج في أعمال المستشرقين لإحياء التراث العربي الإسلامي لم يقتصر على العلوم الطبيعية، وإنما امتد إلى العلوم الدينية التي نصّب المستشرقون أنفسهم أساتذة فيها، عبر توثيق كل أعمالهم - بكل أخطائها- في كتب ومؤلفات وموسوعات، أصبحت في نظر بعضهم مرجعاً في قضايا الإسلام، وخاصةً بظهور «دائرة المعارف الإسلامية»² التي حرّرت موضوعاتها مستشرقون أوروبيون؛ إذ وصف المستشرقون أعمالهم بالعلمية والموضوعية، ويبدو ذلك أيضاً من خلال تسمية مباحثهم عن الشرق الإسلامي بـ«بعلم الإسلام» (Islamologie)، ليجري الترويج إلى أن نتائجهم وأحكامهم صحيحة ودقيقة ولها مصداقيتها، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً.

لقد كان لهذه الأعمال التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب التأثير الكبير على ثقافتنا العربية الإسلامية، وإن لم تخل تلك الأعمال من آثار إيجابية لم تكن مقصودة لذاتها، وهي تبيينها إلى كثير من آثارنا الفكرية وتحفيز بعض مفكرينا على البحث والتتقيب، من دون أن ننسى الإشارة إلى بعض الأعمال الموضوعية التي قام بها بعض المنصفين من المستشرقين، إلا أنهم يُمثلون قلة قليلة لم يكن لها تأثير على المؤسسات أو الرأي العام العربي.

ونجت عن المنهج التمجيدى الذي يُصوّر الماضي الإسلامي الزاهي آثار خطيرة، فهو يجعل المجتمع العربي الإسلامي يعيش على ذكريات الماضي فقط من دون أن يبدع شيئاً في الحاضر، «وتسقط شخصية المسلم في دوامة تذوق عجائب الماضي من دون أن تتعلم الفعالية في التفكير»³. وقد عبّر المفكر مالك بن نبي عن تلك

1- عبد الله العروي، الأيدولوجيا العربية المعاصرة، ص 112-113.

2- وهي دائرة معارف تجمع شتات الدراسات التي قام بها المستشرقون عن العرب والإسلام والمسلمين، كانت الدعوة إلى إنشائها سنة 1895 على أن تكون محرّرة باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية، وتعاقب في الإشراف عليها أكبر المستشرقين.

3- Malek Ben Nabi, L'œuvre Des orientalistes son Influence sur la pensée Islamique, p. 6.

الحالة من الاستلاب بالقابلية للاستعمار، وهي حالة من عقدة الدونية التي تجعل من الشخص ينفاد طواعية لغيره ممن يعتقد أن فيه الكمال والقوة والغلبة، وعلى رأي العلامة عبد الرحمن بن خلدون هو انقياد الغالب للمغلوب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده¹.

7. المنهج الانتقائي:

يعتمد هذا المنهج على اختيار موضوعات بعينها وإثارة الشبهات حولها، أو دراسة شخصيات منتقاة من التاريخ الإسلامي لأهداف محددة يعمل الغزو الفكري على تحقيقها.

إن المنهج الانتقائي منهج تجزيئي يتناول الموضوعات خارج سياقها التاريخي والاجتماعي، ويطلق عليها أحكاماً وفاق ظروف العصر أو من خلال نظريات حديثة لم تثبت صحتها أصلاً. وقد اعتمد الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي على مثل هذه الدراسات لتحقيق كثير من أهدافه، نذكر منها اعتماد الدراسة السوسولوجية للمجتمع في دول المغرب العربي، مثل أعمال «روبير مونتان» (Robert Montagne)² و«جاك بيرك» (Jaques Berque)³ عن البربر بهدف تعريبهم، وقد أفشلت الحركة الوطنية تلك الأهداف، ما دفع «جاك بيرك» إلى القول: «كنا ندرك الشمال الإفريقي انطلاقاً من منظورنا، في حين أنه ينبغي إدراكه في إطار مشاكله الخاصة وتعقده الداخلي، وفي كلمة واحدة يتوجب فهمه انطلاقاً من منظوره الخاص؛ أي من تأويلاته الخاصة بالأساس»⁴.

ويبرز هذا المنهج في انتقاء المستشرقين لشخصيات أو تيارات فكرية هدامة من تاريخنا وعدّها الأساس، ثمّ بناء كثير من النتائج على تلك الاختيارات الشاذة.

1- ينظر: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، ص 147.

2- روبر مونتان (م 1893-1954) (Robert Montagne) باحث فرنسي، من أوائل الذين اهتموا بالنزعة البربرية في أثناء الاستعمار، قدّم أول أطروحة حول البربر سنة 1930م بعنوان «البربر والمخزن» (Les Berbères et le makhzen dans le sud du Maroc).

3- جاك بيرك (م 1910-1995) (Jaques Berque) مستشرق فرنسي، اهتم بقضايا العرب وشمال إفريقيا، من كتبه: العرب (Les Arabes) والبنىات الاجتماعية في جبال الأطلس (Les Structures Sociales du Haut Atlas).

4- عبد الضمد الديالمي، بحث ملامح تطوّر السوسولوجيا في المغرب، في كتاب نحو علم اجتماع عربي، ص 298.

8. المنهج التحليلي:

ونقصد به المنهج التحليلي الفردي الذي يحلل الشخصيات. وهو منهج من المناهج المعاصرة التي استفادت من إنجازات العلوم الاجتماعية، وخصوصاً علم الاجتماع وعلم النفس، وتوظيف تلك المعطيات الجديدة في تحليل الشخصيات خاصة.

استخدم هذا المنهج في دراسة كثير من الشخصيات الإسلامية، بدءاً بالنبي ﷺ وصولاً إلى مجموعة من العلماء والمفكرين والمتصوفة. وقد تخصص بعض المستشرقين في دراسة بعض الشخصيات زمنًا طويلاً حتى صاروا يعرفون بها، مثل: ماسينيون (Louis Massignon) والحلاج، أرست رينان (Ernest Renan) وابن رشد، آسيان بلاسيوس (Asín Palacios) وابن حزم، وهنري لاوست (Henri Laoust) وابن تيمية... لكن لم يكن هدفهم الإعلاء من قيمة الشخصيات الإسلامية، وإنما خدمة الفكر الأوروبي؛ لأنه «إذا حدث أن اهتم بفلاسفة عرب أو مسلمين، فكثيراً ما يعمل على التشكيك في إبداع هذه الشخصيات أو تنسب أعمالهم إلى غيرهم من اليونان»¹.

ومن أمثلة ذلك محاولة «إميل فيليكس قوتيه» (Émile-Félix Gautier) (1864-1940م) إرجاع الإبداع عند ابن خلدون إلى الحضارة الغربية، والشيء نفسه يُقال عن ابن رشد إذ يحاول «رينان» إرجاع عقلانيته إلى طبيعة الأندلس؛ أي المناخ الغربي والتحرر من تأثير الدين.

أمّا «لويس ماسينيون» (1883-1962م)، فلم يكن إعلاؤه لشخصية أبي منصور الحلاج (305-244هـ/ 922-857م)؛ لإبراز قيمة هذا المتصوف في حد ذاته، وإنما لأن تصوفه كان تصوفاً غنوصياً (حلولياً)، وتالياً يرجعه «ماسينيون» إلى المسيحية، وبرز فكرة الحلول التي تتأسس عليها عقيدة التثليث النصرانية. ومنه تتكشف طبيعة المنهج وطريقة استخدامه خدمة لأهداف مسبقة، وليس لإنصاف الشخصيات الإسلامية وتقديرها.

1 محمد عابد الجابري، الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية: في مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، ج 1، ص 319-320.

9. منهج تحليل النصوص:

وهو من المناهج الحديثة التي استفادت من إنجازات العلوم اللغوية أو اللسانيات وبحوثها؛ لأن هذا المنهج يعتمد أساساً على تحليل النصوص. ويهتم هذا المنهج بالبنية اللغوية؛ أي تحليل الألفاظ ودلالاتها وأبعادها العلمية والتحقق من نسبتها لأصحابها وصحة تاريخها، وهو منهج نقدي تحليلي. ولما كانت قضايا الفكر الإسلامي مرتبطة بالتراث العربي الإسلامي، فإن استخدام هذا المنهج بدا ضرورياً للتعامل مع النصوص الشرعية (القرآن والسنة النبوية)، وتحليل المخطوطات والمؤلفات الفلسفية والعلمية والتاريخية التي تركها العرب والمسلمون.

تناول المستشرقون المجال الروحي والنصوص الشرعية، مشككين في صحة الأحاديث تارةً كما فعل «جوزيف شاخت» (Joseph Schacht) في حقيقة الوحي، وكما حاول متعسفاً «مونتوغمري واط» (Montgomery Watt). ونشير إلى مثال آخر نراه يثبت التعسف ويبيّن سقوط بعض المفكرين العرب تحت تأثير هذه الشبهة الاستشراقية، وهو ما قدمه محمّد أركون¹ في ما يُطلق عليه نقد العقل الإسلامي، والذي يدعو إلى إعادة قراءة القرآن والتفسير وأصول الفقه، والعلوم الإسلامية الأخرى.

وقد أثبتنا سابقاً أنّ استخدام المستشرقين لهذه المناهج له أهداف مسبقة، وأغراض سيئة في أغلب الأحيان، تُحرّكها مركزية أوروبية وعصبية خفية ترفض أي إبداع يخرج عن دائرة الحضارة الغربية.

على الرغم من تلك الأهداف الاستشراقية والنتائج المملّقة، إلا أنّ البعض يعتقد أنّ اعتماد تلك المناهج والأعمال ضروري؛ بل يجعل محمّد أركون من الفكر الاستشراقي فكراً علمياً مطلقاً، إذ يقول: «بدأ العلماء المسلمون يتجهون اتجاهاً علمياً سليماً مسائراً للعلوم الحديثة، ولكن عددهم قليل جداً... وأضف إلى ذلك أنّهم لم يتمتعوا بعد بالحرية الضرورية للفكر والنشر والنقد. ولذلك،

1- محمّد أركون (1928 - 2010)، مفكّر معاصر جزائري الأصل فرنسي الجنسية، شغل مدير مركز الدراسات الإسلامية بباريس، وقد كان أستاذاً للفلسفة الإسلامية بجامعة السوربون الفرنسية.

لا يزال الفرق والتباعد يزداد بينهم وبين المستشرقين؛ أي بين الفكر الإسلامي المعاصر والفكر العلمي بصفة عامة»¹.

تبرز الرؤية الاستشراقية في إشارة أركون إلى أن البحث العلمي منعدم في الجامعات الإسلامية، وأنه موجود فقط في الجامعات الغربية. ودفعاً للالتباس، فهو يقصد ذلك في العلوم الإسلامية، إذ يقول: «والبحث العلمي في هذا الميدان يستدعي اعتناق موقف إبستمولوجي لم يفكر فيه بعد في الفكر الإسلامي، ولن يمكن التفكير فيه ما دام التيار التقليدي الدوغماتي متغلباً اجتماعياً وسياسياً على حرية الفكر وحرية الانتقاد. أقصد هنا حرية إعادة النظر في جميع ما يتعلق بعلم الأصول لانتقاد فكرة الأصل في الفكر الإسلامي»².

والسؤال الذي نطرحه: ما الفائدة العلمية من رفض «الأصول» في الفكر الإسلامي وهدم العقائد والتشكيك في الحقائق الإيمانية؟

ليس بعيداً عن ذلك ما ذهب إليه طه حسين (1899-1979م) في الأربعينيات حين ألف كتابه في الشعر الجاهلي، والذي شكك فيه في الحياة الجاهلية ودعا إلى التغريب وتقليد أوروبا في كل شيء، متأثراً في ذلك بالمدرسة الفرنسية وأساتذته من المستشرقين. ولكنه تراجع في ما بعد عن نزعته التغريبية، وظهر ذلك في إسلامياته وعودته إلى التراث الإسلامي.

كما تأثر بعض المفكرين المسلمين بتلك النزعة العلمانية والرؤية الاستشراقية، وبهرتهم بعض المناهج العلمية، مثل المنهج الفيلولوجي (منهج تحليل النصوص)، واعتقدوا أن هذه المناهج كفيلة بحل كل الإشكالات والإجابة عن كل المسائل، بغض النظر عن طبيعة الموضوعات المتعامل معها.

ومع أن الموضوعات الحسّية تختلف عن الموضوعات المعنوية، إلا أن هذه المناهج تطبقت على الإسلام وقضاياها بشكل تعسفي، على الرغم من أن كبار فلاسفة العقلانية يقرّون بعدم قدرة العقل على إخضاع قضايا الميتافيزيقا للنظرة الحسّية المادية، وهذا ما أكدّه الفيلسوف الألماني «إيمانويل كانط» (Immanuel Kant) (1724-1804م) الذي دعا إلى التسليم بوجود الميتافيزيقيا لضمان وجود

1- محمّد أركون، بحث: نحو تقويم واستلهام جديدين للفكر الإسلامي، في الخطة الشاملة للثقافة العربية الإسلامية، المجلد 3، القسم 1، ص 12.

2- المرجع نفسه.

الأخلاق؛ لأنَّ ذلك لا يمكن إثباته مادِّيًّا بالعقل النَّظريِّ وإِنما إدراكه بالممارسة بالعقل العملي¹.

ما يمكن ملاحظته، بعد تحليلنا لبعض المناهج، أنَّ بعض المستشرقين يَدْعون استخدام منهج علميِّ موضوعيِّ، في حين أنَّ تتبُّع محاور بحوثهم وأعمالهم يكشف لنا أنَّها تتنافى مع ما ادَّعوه من معايير منهجيَّة في بداية أعمالهم، ونستطيع أن نعدَّ ذلك خطوة من منهجيَّة الغزو الفكريِّ وادِّعاء منهج علميِّ وموضوعيِّ ثمَّ مخالفته أو هدمه بعد ذلك في إطار البحث.

وعلى الرِّغم من ذلك، تُصدَّر إلينا تلك المناهج والنتائج على أنَّها حقائق، مع أنَّها تتحرَّك - كما أشرنا - وفاق أهداف مشبوهة، ولذلك تفقد قيمتها العلميَّة. زيادة على أنَّ كثيرًا من هذه المناهج يرتبط بنظريات في العلوم الإنسانيَّة، وتحتاج هذه النَّظريات في حدِّ ذاتها إلى إثبات نتائجها وفروضها، وتاليًا يصبح تعميم تلك النتائج وإعطاؤها الصِّبغة العلميَّة أمرًا مبالغًا فيه. ومع ذلك، لا يتوانى مستخدمو تلك المناهج عن التّعسف في استخدامها، ما يثبت النيَّات الميَّنة والأفكار المسبقة والتَّحيز والذاتية، والتي تتنافى كلُّها والروح العلميَّة التي يجب أن يتحلَّى به الباحث العلميِّ النَّزيه.

لذلك، نحن بحاجة إلى تشجيع البحث العلميِّ النَّزيه وفضح البحث العلميِّ المسيِّس الذي يستهدف أغراضًا غير علميَّة، وخصوصًا مع انحصار النَّزعة الاستعماريَّة (الكولونياليَّة) التي ميَّزت كثيرًا من المستشرقين وعلماء الغرب في فترة الاستعمار الذين برَّروه وعدَّوه محرِّرًا للشُّعوب من التَّخلف والجهل. وسقطت هذه الأطروحة اليوم بسيادة قيِّم العدالة والتحرُّر وحقوق الإنسان. كما نُبدي تقديرنا لإقبال جمهور واسع في الغرب على دراسة الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، فلم تعد حكرًا على المتخصِّصين فقط، ولم تعد تحرِّكهم دواع استعماريَّة أو تبشيريَّة؛ بل أسباب ذاتية ومعرفيَّة، ما نتج عنه أعمالٌ موضوعيَّة.

وعليه، نؤه بتلك البحوث المنصفة لحضارتنا، على الرِّغم من أنَّها لا تُشكِّل إلَّا جزءًا ضئيلاً ومحتملاً في وسط تراكم في فترات سابقة لكم هائل معادٍ في أغلب الأحيان، ومع الأسف هو ما يُشكِّل الرأْي العام الغربيِّ ويوجِّهه صانع القرار الغربيِّ. لذلك، يتطلَّب الأمر تشجيع البحوث العلميَّة المتوازنة لتصحيح الرُّؤية وإعطاء

1- ينظر: إيمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق.

الفكر العربي الإسلامي وجهه الحضاري الصحيح؛ لنساهم جميعاً في بناء الحضارة الإنسانية التي تتحقق بالتعاون والإخاء بين جميع فروعها، لا بالتطرف والإلغاء بين أبنائها، وخصوصاً أننا أمة يؤمن أبنائها بتعارف الحضارات وتواصلها¹، ويرفضون الرأي القائل بتنافر الحضارات وصدامها؛ لأن الحضارة تراكم ثقافي معرفي علمي ساهمت فيه الإنسانية.

معالم مناهج الاستشراق والتغريب في الفكر الإسلامي

بعد أن تطرقنا إلى أهم المناهج التي استخدمها المستشرقون بغرض اختراق المجالات المختلفة للثقافة العربية الإسلامية، سنحاول في هذا القسم أن نحدد ونبرز معالم المنهج العام الذي يوجه كل المناهج السابقة. ومن هنا تبرز أهمية التحليل الذي يبين معالم النزعة التغريبية التي أطرت ووجهت المناهج المختلفة في تعاملها مع قضايا الفكر الإسلامي، تلك المعالم التي تتخفى تحت مصطلحات الموضوعية والمنهج العلمي، في حين أن تتبع تلك المناهج وطريقة استخدامها يبرز لنا أن كثيراً من المفكرين الغربيين، أو المغربين، يتحركون وفاق أفكار مسبقة وأحكام خاطئة ناتجة عن تأثير ذلك المنهج العام الذي درج على أتباعه بعض كبار المستشرقين، ما شكّل تقليداً سائداً وخطاً فكرياً سار عليه الذين جاؤوا من بعدهم، وأصبح من الصعب عليهم مخالفته.

تلك المعالم التي تشكل عناصر رئيسة في منهج التفكير والبحث الذي استخدمه بعض المستشرقين. كما أن هذه المعالم ليست قضايا نتصورها، وإنما هي وقائع نلمسها، وسنعمل على إثباتها بأدلة موضوعية وحجج علمية تبرز وجود هذه الخطوات في مناهج التغريب التي تتغنى بالمنهج العلمي في حين أن تتبعها يُثبت العكس، وهو ما سنعمل لإثباته لتبرز بذلك الضرورة الملحة لتصحيح تلك الرؤية. ثمة مجموعة من الخطوات التي أطلقنا عليها مصطلح «معالم» للدلالة على أنها خطوات تؤطر المناهج المختلفة وتوجهها نحو أهداف محددة في غالب الأحوال مسبقاً. والحقيقة أن هذه المعالم والخطوات تستنبط من تطبيقات المناهج السابقة،

1- ينظر في ذلك: الطرح المتميز لركي الميلاد في تعارف الحضارات، والتأسيس لبعدهم تقريباً ترغيبياً بين الشعوب والحضارات، في مقابل البعد الترهيبية التخريبية الذي يتبناه أعداء الحضارة من الطرفين.

وقد مثلنا لبعض تطبيقاتها في تحليلنا السابق للمناهج، وخصوصاً في تعاملها مع المجالات المختلفة في الفكر الإسلامي، ولا سيما تلك التي كان يستهدفها التغريب. تجدر الإشارة إلى أن هذه الخطوات ليست أموراً نتصورها أو نفتعلها، وإنما هي وقائع نلمسها من آثار الغزو التغريبي في الفكر الإسلامي. لذلك، اعتمدنا على تطبيقات المناهج السابقة لاستنباط هذه الخطوات المنهجية التي نرى أنها موجودة في تلك المناهج، وهي توجه كل وسائل الغزو الفكري المختلفة وتوطرها، وتمثل هذه الخطوات في:

1. مركزية الحضارة الغربية:

تنطلق كل عمليات الغزو الفكري الموجهة من هذه الخطوة. فالغزو الفكري عملية موجهة من حضارة غربية إلى شعوب العالم. لذلك، تُستخدم الحضارات غير الغربية موضوعاً للدراسة مع نظرة دونية، «إنَّ التمرکز الأوروبي قد خلق خرافة الشرق بصفته مضاداً للغرب»¹. وقد ظهرت هذه الخطوات المنهجية في الرؤية الاستشراقية في العقيدة والفلسفة والاقتصاد، إذ أرجع الأوروبيون نفوقهم في السابق إلى طابعهم الأوروبي أو عقيدتهم المسيحية أو نسبهم إلى أسلافهم الإغريق، واليوم يرجعون ذلك إلى الإيديولوجية الرأسمالية المعاصرة.

إنَّ مناهج التفكير الغربي تنطلق دائماً من هذه «المركزية الفكرية» التي ترى أنَّ حضارة الغرب هي الأصل والمركز، وأنها تحققت للعقل والموضوعية، وتالياً فهي الحقيقة الوحيدة. ويجري الترويج في المقابل لفكرة أنَّ الحضارات الأخرى مجرد ثقافات بدائية هامشية، تُقاس على مقياس المركز لتكتسب الاعتراف بها، على الرُغم من أنَّ فرضية استمرارية تاريخية تمتد من اليونان إلى روما فالقرون الوسطى فالإقطاع فالرأسمالية المعاصرة، لتفسير ما يدعى بأطروحة التمرکز الأوروبي، أمر فيه تعسف كبير. إذ نشأ عن هذه الفرضية فرضيات أخرى أكثر عنصرية، نذكر منها تقسيم البشر إلى ساميين وآريين، واللغات إلى سامية وأخرى هندو-أوروبية، ثمَّ نقلت العنصرية إلى الدين ففسرت المسيحية ديناً متفوقاً على الإسلام والاعتقادات الشريكية، مع العلم أنَّ الديانة المسيحية في حدِّ ذاتها شريكية.

إنَّ الانطلاق من مركزية الحضارة الغربية عنصر موجود في المناهج الغربية الحديثة، وهو موقف ذاتي قائم على نظرة غير علمية وغير تاريخية للثقافة والأديان.

1- سمير أمين، التمرکز الأوروبي نحو نظرية للثقافة، ص 71.

2. روح التّعصب ومعاداة الحضارة العربيّة الإسلاميّة:

تتجسّد هذه الخطوة في أعمال أدوات الغزو الفكريّ المختلفة، مثل: التبشير والاستشراق والإعلام والمواقف السياسيّة. وقد لاحظنا هذه الخطوة المنهجية في تعامل الغزو الفكريّ مع قضايا المجال العقائديّ، بحيث تُعتمدُ الشبهات ويُتهجم على الإسلام ونبیّه والمسلمين، ويُنفى الطّابع العقلائيّ عن عقيدة الإسلام وشريعته. هذه الرّوح العدائيّة تبرز تقليدياً عامّاً، وتهاجم كلّ ما له صلة بالإسلام والمسلمين إلى حدّ «العقدة» من المسلمين. وهذه الخطوة التي يسير عليها التّفكير الغربيّ ينكرها الغربيّون، ويرجع ذلك في اعتقادنا إلى أنّها ترسّخت في اللاوعي الغربيّ، ثمّ صارت جزءاً من المنهج المعتمد في التّعامل مع قضايا الإسلام.

يقرّ بعض المستشرقين أنفسهم بوجود هذه العقدة من التّحيز، وهذا يدلّ على وجودها في مناهجهم وصعوبة التّخلّص منها. وشهد شاهد من أهلها إذ تحدّث «مونتغمري واط» عن توماس كارليل (1795-1881م) (Thomas Carlyle) وإنصافه للنبيّ محمّد ﷺ، فقال «واط»: «كان على (كارليل) أن يواجه بشجاعة المشكلة الكبرى التي تواجه الأوروبيّ أو أيّ دراس غربيّ لمحمّد والإسلام، والمشكلة: أنّنا ورثة تحييز راسخ الجذور، ويعود إلى الدعاية الحربية للقرون الوسطى»¹. كما أشار المفكّر الفرنسيّ غوستاف لوبون (1841-1931م) (Gustave Le Bon) إلى ذلك، إذ يزعم التّفكير الغربيّ الحديث التّحرر والموضوعيّة والعلميّة، ثمّ يقف إزاء الإسلام وقضاياها موقفاً آخر تمليه عليه عصبية خفيّة².

وبهذا، لم نعد نحتاج إلى أدلّة أخرى لإثبات وجود هذه الخطوة في مناهج التّغريب بعد هاتين الشّهادتين، زيادة على ما أثبتناه سابقاً.

3. الذاتيّة (اللاموضوعيّة):

ترتبط هذه الخطوة بالخطوات السّابقة، إذ إنّ أدوات الغزو الفكريّ أسيرة أهدافها التي من بينها الانطلاق لإثبات مركزيّة الحضارة الغربيّة، وتالياً تنعدم الموضوعيّة ويصبح التّمركز حول ذاتيّة حضاريّة جزءاً أساسياً من المنهج المستخدم؛ إذ يتعامل الغرب - كما أثبتنا سابقاً - مع قضايا الإسلام أو العرب تعاملًا غير موضوعي، إلّا أنّ تتبّع الوقائع والنتائج يكشف عن ابتعاد كبير لهؤلاء عن الموضوعيّة.

1- يوسف القرضاوي، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، ص 138.

2- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص 139.

وللتدليل على ذلك، فلنتأمل هذه الشهادات لمستشرق يعدّ من أعظم المستشرقين المهتمين بالفكر الإسلامي، وهو «جيب» (Hamilton Gibb)، والذي يقول عن المفكر المسلم الكبير محمد إقبال (1873-1938م): «قد يعدّ إقبال بحق من أكبر وجوه الطائفة الإسلامية الحديثة، ولكنّه قد يعدّ كذلك أشدهم إثارة لخيبة الأمل من وجهة النظر الفكرية»¹. ويضيف أيضاً: «كما أنّ إنتاجه على ما أعتقد لم يمارس أيّ نفوذ خارج حدود الهند»².

فيما يختلف الكلام تماماً عندما يتكلّم «جيب» عن طائفة «القاديانية» التي صنعها الاستعمار الإنجليزي، إذ يقول: «بالإضافة إلى كلّ ذلك، أنجبت الهند طائفة واحدة مسلمة يمكن أن نقول أنّها نجحت، وهي الحركة الأحمدية التي وُلدت على شكل حركة إصلاح ليبرالي... كان مؤسس هذه الحركة يدعى ميرزا غلام أحمد، وكان يعدّ نفسه مهدي الإسلام ونبيّ المسيحيين، بالإضافة إلى كونه تقيماً عن كريشنا»³.

والحقيقة أنّ تأمل هذه الأقوال يبرز لنا ذاتية المستشرق وأفكاره المسبقة التي تجعل من المفكر المسلم الكبير محمد إقبال مجرد سياسي هنديّ مسلم ليس له أيّ أثر فكريّ أو تأثير في العالم الإسلاميّ، فيما يجعل في المقابل من الحركة القاديانية المنحرفة حركة ناجحة، على الرّغم من أنّه يعترف أنّ زعيمها يدعي النبوة ويحاول الجمع بين الديانات المختلفة. ولا يفسر هذا إلاّ بغياب الموضوعية في إدراك قضايا الفكر الإسلاميّ، أو بتعمّد الدسّ باستخدام أفكار مسبقة تملئها أهداف سياسية استشراقية.

كما أنّ طبيعة التّغريب التي تستخدم وسائل وأدوات لتمرير أهداف كثيرة تجعل من ممارسة الموضوعية أمراً مستحيلاً؛ لأنّ الرّوح التّغريبية تناقض مفهوم الموضوعية. إنّ وسائل التّغريب تكاملت مع الاستعمار بكلّ أشكاله، العسكرية والاقتصادية والثّقافية، وثبت أنّ التّغريب عمل موجّه لتحقيق أهداف مُحدّدة. وعليه، لا يمكن أن نجد الموضوعية في أعمال حُددت مسبقاً أهدافها وأُتيحت لها كلّ الوسائل. وتالياً، يثبت انعدام الموضوعية والاتّسام بالذاتية في مناهج التّغريب.

1- هاميلتون جيب، الاتّجاهات الحديثة في الإسلام، ص 89.

2- المرجع نفسه، ص 90.

3- المرجع نفسه، ص 91.

4. العلمانية:

يغلب على كلِّ المناهج التي يستخدمها التَّغريب نزعة علمانية، وتالياً تفسَّر قضايا الفكر الإسلاميِّ ومشاكل مجتمعاتنا العربيَّة الإسلاميَّة وفاق هذه الفلسفة العلمانية التي لا تعترف بالوقائع الدِّينيَّة والحقائق الإيمانيَّة، وتحاول تفسيرها بشكل مادِّي تجزييِّ يلغي طبيعتها الرُّوحية.

هذه الخطوة موجودة في مناهج التَّغريب، وهي أساسية في إطلاق الأحكام والتَّوصُّل إلى التَّنائج؛ بل ترفض كلَّ القضايا التي لا تخضع للقوانين المادِّية. ويوصف التَّفكير الذي يخرج عن المنهج العلمانيِّ بالتَّفكير اللاهوتي أو الخرافيِّ أو السَّحريِّ، وهي مغالطات تهدف إلى إلغاء قضايا الإيمان، كما يهدف إلى فصل الإسلام عن الواقع الاجتماعيِّ.

وقد ظهر هذا المنهج في الدِّراسات التي تناولت العقيدة والشريعة ورفضت الوحي وشككت في صلاحية القوانين الشَّرعية لتنظيم الحياة اليوميَّة.

5. النزعة الرِّبِّيَّة (التشكيكية):

نجد هذه الخطوة المنهجية أيضاً في مناهج التَّغريب، وهي ليست شكاً منهجياً هادفاً، ولكن يصبح الظَّن هدفاً في حدِّ ذاته، وخصوصاً في رفض أيِّ حقيقة يثبتها أو يقول بها المسلمون. وتصبح المبالغة في الظَّن وسيلة لإثارة الشُّبهات وتشويه الموضوعات المدروسة، ويكون الأمر أكثر حساسية عندما يكون موضوع الشُّك هو القضايا الإيمانية. وقد لاحظنا استخدام هذه النزعة للتشكيك في الوحي وفي التاريخ الإسلاميِّ وأصالة الفلسفة والإبداع عند المسلمين.

إنَّ الهدف من النزعة الرِّبِّيَّة المبالغ فيها قلب الحقائق إلى مزايم والتَّنائج إلى متناقضات، رغبة في إثارة الشُّكوك للهدم والنَّقض لا للبناء والتأسيس. ومن نماذج ذلك ما قاله جوزيف شاخت (1902-1969م) (Joseph Schacht) حين شكك في صحَّة السُّنَّة النَّبويَّة، وذلك على الرَّغم من أنَّها مزاعم خاطئة وشكوك باطلة، ولكن يُروَّج لها وتوكَّد على أنَّها حقائق جرى التَّوصُّل إليها. كما تُروَّج شبهات المستشرقين التي تزعم أنَّ الإسلام قد انتشر بالقوَّة، وأنَّه دينٌ من وضع محمَّد، وأنَّه انتشر لأسباب اقتصادية أو توسُّعية وليس لأسباب دينية.

تتجاوز هذه النزعة الرِّبِّيَّة حدود الموضوعية وطبيعة الشُّك المنهجيِّ المؤقت، وتحوَّل إلى نزعة نقدية مبالغ فيها تصل إلى حدِّ نفي الحقائق الإيمانية، وإخضاع

الموضوعات إلى المنطق الوضعي والنظرة الماديّة.

6. الماديّة:

توجد هذه النزعة في كثير من أعمال التّغريب، وخاصّة في المناهج المتأثّرة بالتفسير الماركسي للاقتصاد والتّاريخ. وقد أشرنا إلى استخدام هذا المنهج الماديّ في قضايا وأمور إيمانيّة دينيّة. كما فسّرت كثير من الحوادث التّاريخيّة في الفكر الإسلاميّ تفسيراً مادّيّاً أو اقتصاديّاً.

ظهرت بعض الدّراسات التي تستخدم المنهج الماديّ في نهاية السّتينيات وبداية السبعينيات، وتزامن ذلك مع المدّ الاشتراكيّ في العالم العربيّ وقوّة المعسكر الشّرقيّ آنذاك، ودعمه لبعض الدّول العربيّة في كفاحها ضدّ الاستعمار الأوروبيّ والهيمنة الأمريكيّة. لذلك، كانت الماديّة والقيم الاشتراكيّة تُقدّم على أنّها عنوان التّقّدّم والعلميّة، في مقابل أوصاف الرّجعيّة والتّخلّف التي تُطلق على ما عداها من قيم. تبنّى اليسار العربيّ ذلك الطّرح، كما فعل مثلاً حسين مروّة (1987-1910م) في مشروعه عن الفلسفة العربيّة الإسلاميّة إذ يقول: «إنّ المنهج الماديّ التّاريخيّ وحده القادر على كشف تلك العلاقة ورؤية التّراث في حركيّته التّاريخيّة، واستيعاب قيمه النسبيّة، وتحديد ما لا يزال يحتفظ منها بضرورة بقائه وحضوره في عصرنا شاهداً على أصالة العلاقة الموضوعيّة بين العناصر التّقدميّة الديمقراطيّة من تراثنا التّقافويّ والعناصر التّقدميّة والديمقراطيّة من ثقافتنا القوميّة في الحاضر»¹.

وهو تفسير يُرجع انتشار الإسلام إلى أسباب اقتصاديّة، وينفي أصالة الفلسفة الإسلاميّة، ويتلمّس أيّ عوامل اقتصاديّة في التّاريخ الإسلاميّ، ويقدمها على أنّها الأساس في تفسير الحوادث. وهو كلام لا يختلف عمّا ذهب إليه كثير من المستشرقين الذين لا يرون في التّاريخ الإسلاميّ إلاّ ثورة على الأوضاع الماديّة والاقتصاديّة السيّئة، وهو تفسير من دون شكّ لا يعترف بالتفسير الدينيّ أو الرّوحيّ. كما يترتّب على التفسير الماديّ إنكار الوحي وكلّ ما يتبعه من حقائق إيمانيّة، مع أنّ تفسير كلّ الحوادث على أساس النزعة الماديّة، وعدّ ذلك تطبيقاً للمنهج العلميّ أمرٌ لا يثبت العلم نفسه؛ لأنّ ثمة موضوعات غير حسيّة لا تخضع للملاحظة العلميّة. ومع ذلك، يحاول العلم نفسه تفسير تلك القضايا، باحترام طبيعتها الرّوحيّة أو النّفسيّة، مثل قضايا النّفوس، وأحوال الشّعور...

1- حسين مروّة، النزعات الماديّة في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة، ج1، ص 6.

7. النزعة العنصرية:

يتعامل الغربيون بوعي أو من دون وعي (بنزعة عنصرية) تجعلهم يحتقرون غيرهم من الشعوب، وترتبط هذه النزعة بروح التعالي والغرور، واعتقاد الغربي بقدرته على تفسير كل القضايا. وفي المقابل تُحقّر وتضعف أقوال علمائنا وآراؤهم، ويُفضّل الغربيون عليهم حتّى ولو كانوا على خطأ، ولو كانت الموضوعات ليست ضمن مجال تخصّصهم. وأصبحت هذه النزعة العنصرية تظهر على شكل تقليد منهجي يتبعه الغربيون للتعامل مع قضايا مجتمعاتنا. ومن أمثلة ذلك إنكار فعل الفيلسوف والإبداع عند المسلمين، وتخوف الغربيين من تجاوز هذه النزعة في فلسفتهم، فيما لا يتورعون عن إطلاق التّهم والشبهات من دون روية إذا تعلق الأمر بالعرب والمسلمين. هذه الخطوة المنهجية مكّمة للخطوات السابقة ومرتبطة بها، إذ إنّ الانطلاق من مركزية الحضارة الغربية والأدعاء بتفوق الأوروبيين ثقافيًا وتاريخيًا ودينيًا، يترتب عليهما من دون شك نظرة عنصرية في التعامل مع الشعوب غير الأوروبية.

ونعتقد أننا أبرزنا هذه الخطوة المنهجية في تحليلنا لمناهج التغريب، وأيضًا في تمثيلنا لبعض المواقف الغربية من أصالة الفلسفة والتاريخ الإسلاميين. والحقيقة في أنّ ذلك يدلّ على جهل المستشرقين بقضايا الفكر الإسلامي، وذلك ما يؤدي إلى «اغترابهم عن الإسلام (ما) زاد شعورهم بتفوق الثقافة الغربية وسموها حدة وكثافة، حتّى اتّسع نطاق كرههم الغريزيّ ليشمل الشرق بأكمله، والذي عدّ الإسلام ممثلًا منحطًا (وفي العادة شديد الخطورة) له»¹.

8. الأحكام المسبقة:

نعني بهذه الخطّة المنهجية الموجودة في مناهج التغريب إطلاق الأحكام المسبقة والعمل على إثباتها، وهذه الخطوة مرتبطة أيضًا بالخطوات السابقة. إنّ كثيرًا من وسائل التغريب، مثل الاستشراق والإعلام، تتخذ من الأفكار المسبقة أساسًا لعملها، إذا لاحظنا كيف ينطلق المستشرقون من اصطيات العشرات وإطلاق الأحكام المسبقة من دون تثبت، واختيار الآراء الشاذة والشواهد الضعيفة وبناء النظريات والمواقف على أساسها. والدليل على وجود هذه الخطوة في أعمال التغريب تمسك الغربيين بمواقفهم، واعتقادهم الكمال وعدم السقوط في الخطأ ورفضهم تصحيح العلماء المسلمين لهم.

1- إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 264.

وعليه، فقد نتجت هذه الخطوة المنهجية - التي تجذرت في المناهج الغربية - عن تعامل الغربيين مع موضوعات الإسلام والمسلمين من منطلق التّعالّي ونزعة الفوقية، ومن جهة أخرى عن توارث الأفكار المسبقة من تأثير الحروب الصليبية؛ إذ اتخذت الأحكام التي أطلقها متعصبون ومبشّرون ومستشرقون صورة تقليد منهجي، وإطار فكري توارثته الأجيال التالية من دون بحث أو تمحيص. فتحوّلت تلك الأحكام المسبقة إلى أفكار ثابتة، وحقائق مسلّم بها من غير تحقّق علمي. كما تخوّف الكثير من المنصفين أو المعتدلين من مخالفة آراء من سبقهم، وتهديم تلك الرؤية المسبقة للقضايا وذلك التقليد المنهجي المتوارث.

هذا التّخوّف في حدّ ذاته سقوط في الفكر المسبق وإعطائه الشرعية، إذ يقول المستشرق «مونتغمري واط»: «إنّ مخالفة جولدزيهر (Ignác Goldziher) (1850-1925م) ليست بالأمر السهل»¹.

كما نلاحظ ذلك أيضًا عند «أرنست رينان» (1823-1892م) حين علّق على عنايته بمذهب ابن رشد (520-595هـ/1126-1198م) قائلاً: «وقد بدت لي هذه الملاحظات أمرًا ضروريًا لاتّقاء لوم على عنايتي بمذهب عاد لا يُحرّك ساكنًا فينا»².

9. العقلانية:

وهي من أهمّ الخطوات التي اعتمدها صانعو سياسة التّغريب، إذ اعتقدوا القدرة على إخضاع أيّ ظاهرة مادّية أو روحية، لمقولات التّحليل العقليّ الخالص. وتحوّل مصطلح العقلانية إلى مفهوم مقدّس، وإلى مفتاح سحريّ لحلّ المشاكل التّقنيّة والفكريّة والفنيّة، وعنوان التّقدّم والتّطور الحضاريّ الذي تفتخر به أوروبا اليوم. ومن هذه القيمة الكبرى لهذا المفهوم؛ أي العقلانية، أصبحت تُصدّر إلينا المفاهيم والأفكار والأيدولوجيات، وفي كثير من الأحيان المغالطات تحت غطاء العقلانية. على الرّغم من أنّ العقل هو العامل المشترك بين جميع الناس، كما يقول رينه ديكارت (1596-1650م) (René Descartes): «العقل هو أعدل

1- جعفر الشيخ إدريس، منهج مونتغمري واط: بحث في مناهج المستشرقين في الدّراسات العربيّة الإسلاميّة (في جزأين)، ص 238.

2- أرنست رينان، ابن رشد والرّشدية، ص 16.

الأشياء توزعاً بين الناس»¹، إلا أن الغرب لا يعترف إلا بالعقل الغربي عقلاً مبدعاً. وعليه، فقد اخترع الاستشراق خرافة أن الإغريق هم أسلاف الأوروبيين، وأن العقلانية والإبداع من خصوصيات هذا الجنس وحده، فيما ألصقت كل الخصائص السلبية المضادة للإبداع بالمجتمعات الشرقية.

10. التبشير بالمنهج الرأسمالي:

يؤكد على هذه الخطوة المنهجية في كل مظاهر التغريب والحضارة الغربية، وتقوم وسائل الغرب الفكرية بالتبشير بالنظام الرأسمالي بوصفه نظاماً عملياً طبيعياً من خلال أسس هذا النظام، مثل قانون السوق والعرض والطلب، وحرية التبادل والمنافسة، وحق الملكية الفردية وإبعاد الأخلاق من المعاملات المالية... ولدعم هذا المنهج، تُروج وسائل الإعلام الغربية لصور التطور المادي والتكنولوجي الغربي على أنه نتيجة لتطبيق النظام الرأسمالي، وتتجنب الكشف عن ارتباطه بالاستعمار والهيمنة، وتتغاضى عن كل السلبيات والويلات والأزمات التي سببها هذا النظام للاقتصاد العالمي.

كما تعمل وسائل التغريب المختلفة على إثبات أن الغرب ليس عالم القوة والثروة فقط؛ بل أيضاً عالم العلم والعقلانية والفعالية والتسامح والاعتراف بمبدأ المساواة، للتأكيد على أن الغرب الرأسمالي أفضل العوالم الموجودة. وتالياً، يصبح الاستنتاج الصريح هو ضرورة التخلي عن كل الثقافات والعقائد لصالح اعتناق النموذج الرأسمالي الغربي ليكون شرطاً وحيداً للتقدم.

إن المركزية الأوروبية تضع غيرها اليوم في مأزق خطير للغاية، وخصوصاً عندما تضعه أمام خيارين كلاهما مرّ، فإمّا اختيار الطريق الرأسمالي بكل أبعاده الثقافية، وإمّا التعرّض لمضايقات اقتصادية وسياسية كبيرة. وما يمكن أن نؤكد أنه هو أن فرض النموذج الرأسمالي خطوة تتم بوسائل القوة الاقتصادية والسياسية والثقافية، إذ نلاحظ ذلك في تطبيق جملة من العقوبات الاقتصادية وتوجيه سهام التشويه الإعلامي والثقافي نحو الدول المعادية للنموذج الغربي الرأسمالي.

ولذلك، لا نتعجب مما يتعرّض له العالم الإسلامي عامّة، والعربي خاصة، من هجوم عنيف لوسائل التغريب، لأنّ العالم الإسلامي يُمثّل بديلاً ونقيضاً قادراً على كشف المغالطة الغربية.

1- رينيه ديكارت، مقالة الطريقة، ص 58.

11. إثارة الفوضى من الداخل:

تمثل إحدى أهم خطوات مناهج التغريب، وذلك لأن وسائلها من إعلام واستشراق وتبشير... تراهن دائماً على قلب الأوضاع وإثارة المشاكل من داخل المجتمعات المغرّوة. ويرجع ذلك، في اعتقادنا، إلى إدراك مخططي التغريب أن أفكارهم لا يمكن أن تمتد إلى مجتمعاتنا إلا في ظلّ الضعف والتشتت والفوضى وعدم الاستقرار. لذلك، تشوّه صورة دولنا وتصدّر إلينا كثير من مشاكل الغرب وآفاته. كما تضخّم وسائل الإعلام مثلاً الأحداث وتوجّهها وفاق أهداف مضرّة بمصالح بلداننا وشعوبنا. إن إثارة الفتن وتلغيم الأوضاع تخصّص خطير أصبحت تُتقنه الدوائر الغربية، سواء من خلال مخابراتها أو وسائل إعلامها. ويكفي في ذلك ما نلاحظه من علاقات التوتّر بين الدول العربية والإسلامية. وما يحدث في داخل هذه الدول من مشاكل سياسية واجتماعية ودينية أحياناً مختلفة اختلاقاً، وللغرب يدٌ فيها. كما يستخدم الغرب سياسات «فرّق تَسُد» وإثارة المشاكل وتمزيق وحدة الشعوب العربية بتشجيع ظهور العصبية والطائفية، والعمل على إثارة التصادم بين أفراد الشعب الواحد.

12. خداع المصطلحات:

لم يكن التغريب ليحقّق نتائج المؤثّرة من دون أن يعتمد على التّمويه، وذلك بتميرير كثير من النتائج على أنها حقائق، تحت شعار شحنة من المصطلحات العلمية أو الشعارات السياسة التي اتّخذت في ظلّ الترويج أنها حقائق أو مظاهر عالمية للثقافة.

ولذلك تصدّر إلينا كثير من النتائج المغلفة بشعارات برّاقة تسمح بنفوذها واختراقها لواقعا الثقافي. فمثلاً، تستخدم مصطلحات التطور والعصرنة والتنمية في ميدان الاقتصاد، والعالمية والموضوعية والديمقراطية والحرية في ميدان الفكر والسياسة. ولكنّ الخطر يكمن في أن هذه المصطلحات توجّه توجيهها يخدم المصالح الغربية فقط.

كما أن هذه المصطلحات فضفاضة، ولذلك يستخدمها الغرب كيفما يشاء، فلا حرية ولا ديمقراطية إلا ما يراه الغرب خادماً لمصالحه ولو أدى ذلك إلى التناقض، ولا تطور ولا تنمية إلا باعتماد الحلّ الرأسمالي الغربي، ولو كان ذلك على حساب الفقراء.

وعليه، تفقد تلك المصطلحات حقيقتها، وتصبح في حدِّ ذاتها وسيلة وخطوة منهجية في مناهج التغريب.

13. منهجية الإغراء:

تعمل مناهج التغريب لتحقيق نتائجها عن طريق إبهام مجتمعاتنا نفسياً واجتماعياً بمظاهر الحضارة الغربية. إنَّ عملية الإبهام تشبه عملية التّويم المغناطيسي والإيحاء الذي يمارس على شعوبنا، فالحضارة الغربية من خلال وسائلها المتعددة، تقوم بعملية إشهار شاملة ومتنوعة لنموذج ثقافي ومادّي واحد: هو الغرب الرأسمالي. فمثلاً، تمارس وسائل التغريب ضغطاً نفسياً وإغراءات لا تقاوم لجذب علمائنا ومبدعينا (هجرة الأدمغة)، وعلى المستوى الشعبي تسعى إلى احتلال العقول لتنشئ شخصيات ضعيفة تابعة للغرب ومنبهة به في كل شيء. وينتج عن ذلك الانبهار تبعية اقتصادية وروح استهلاكية مبالغ فيها لمنتجات الغرب، ما يؤدي إلى تفرغ مجتمعاتنا من مواردها المادية والبشرية.

ويحقق الغرب أهدافه من خلال ربطنا اقتصادياً باقتصاده وتوريث دولنا في الديون، وما يتبع ذلك من تدخّل في شؤوننا السياسية والاقتصادية والثقافية.

14. الانتقائية والتلفيق:

تعتمد وسائل التغريب في مناهجها على عملية انتقاء الروايات والشواهد والوقائع والموضوعات، وتلفيق النتائج لتتوافق وأهدافها. أدى استخدام هذه الخطوة في مناهج التغريب إلى الحكم على القيم والمبادئ الخاصة بمجتمعاتنا انطلاقاً من قضايا شاذة وشواهد معزولة ووقائع متناقضة. وفي كثير من القضايا تلتق النتائج مسبقاً، ويُعمل لإثباتها بشكل تعسفي، ما ينتج عنه تشويه متعمد للموضوعات المدروسة.

وقد أشرنا إلى تطبيقات المنهج الانتقائي مع قضايا الفكر الإسلامي في انتقاء محطّات من دون غيرها والتركيز عليها دون سواها، وذلك لأغراض مسبقة تسيء إلى المنهج العلمي النزيه.

15. السّلطة العلمية (حجّية الاستشراق):

استطاعت مناهج الاستشراق والتغريب أن تجد تأثيرها في كلّ المجالات، وامتدّت إلى أدقّ المجالات وأخصّها وهو المجال العقائدي، وذلك من خلال تنصيب المستشرقين أنفسهم مصادر يجب الرجوع إليهم حتّى في معرفة الإسلام

وقضاياه المختلفة في العقيدة والشريعة. وتأكد ذلك بإصدار المؤلفات والموسوعات والمعاجم المتعلقة بالعالم الإسلامي وقضاياها، وإعطاء مصادرهم المصدقية والحجّة والموضوعية، وذلك بتوثيق أعمالهم المختلفة وآرائهم الشخصية في مصدر، وكأنّهم بذلك يوثقون لكثير من الآراء التي كانت ستبقى معزولة وفردية، فظهرت «دائرة المعارف الإسلامية» التي أعطت المستشرقين الحقّ في كتابة أيّ شيء عن الإسلام والمسلمين.

أصبحت «دائرة المعارف الإسلامية» مرجعاً للأوروبيين من دارسي الإسلام وغيرهم، وامتدّ تأثيرها إلى بعض المسلمين الذين أصبحوا يستشهدون بما فيها لتبرير الآراء والأحكام في قضايا الإسلام وتاريخه، على الرّغم ممّا فيها من أخطاء وتشويه لحقائق الفكر الإسلامي. وما يثبت خطر «دائرة المعارف الإسلامية»، هو أنّ القائمين عليها هم من أخطر المستشرقين من الآباء البيض واليهود، أو المتعصّبين للحضارة الغربيّة على حساب الحضارة الإسلاميّة.

وما يؤكّد ذلك، أيضاً، هو قيام المؤسسات الدينيّة والسياسيّة والاقتصاديّة في الغرب بإغداق الأموال على المستشرقين، وبطبيعة الحال تظهر طبيعة الأهداف المتوخّاة من تلك المؤسسات المشبوهة، فمثلاً: «كانت مؤسسة روكفلر (Rockefeller) قد منحت مبلغ 45 ألف دولار»¹ لإصدار الطّبعة الجديدة من «دائرة المعارف الإسلاميّة» سنة 1962.

لقد أعطى بعض المفكرين العرب المصدقية لكلّ أعمال المستشرقين، وعدّوا ما جاء في دائرة المعارف الإسلاميّة صحيحاً وعلمياً، فيقول نجيب العقيقي (1916 - 1981م): «وقد تحقّقت الغاية من دائرة المعارف الإسلاميّة، من إحاطة النّاس حقّ الإحاطة بأحوال ملايين المسلمين، وإطلاعهم على تاريخهم وجغرافيتهم ودينهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم وتراجم المشهورين من رجالهم، بطريقة علميّة خالصة، فجاء أمتع كتاب عنهم في الغرب وأقرب إلى الحقائق والتّمحيص والاستنباط والإحاطة في كلّ ما ألفه الغربيّون في هذا الشّأن»².

والحقيقة، أنّنا لا نستغرب هذا الكلام عندما ندرك أنّ المفكر اللبناني العقيقي

1- نجيب العقيقي، المستشرقون، ج3، ص 372.

2- المرجع نفسه.

يجعل من نفسه واحداً من المستشرقين الذين أرخ لهم في مجلداته¹.
ومما سبق ذكره، يتأكد لنا وجود هذه الخطوة المنهجية في كل مناهج التغريب
التي تجعل من أعمال الاستشراق مصدراً لا غنى عنه، ومن نتائجها حقائق لا نقاش
فيها.

16. المرجعية الأوروبية:

هذه الخطوة نتيجة من نتائج الخطوات السابقة، إذ كما أثبتنا سابقاً أصبحت
«دائرة المعارف الإسلامية» تعد مرجعية علمية في أخص خصوصياتنا، وخاصة
الإسلام عقيدة وشريعة.

اكتسب المستشرقون أيضاً حججاً في ميادين اللغة العربية، وذلك من خلال
مؤلفاتهم أو تسربهم على شكل أعضاء فاعلين في الجامعات العلمية للغة العربية في
العالم العربي والإسلامي. وإذا كان التغريب، من خلال مناهجه المختلفة، استطاع
أن يمتد إلى مجالات الفكر الإسلامي الحميمة، فإنه على مستوى المجالات
الأخرى، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، يحتكر الحقيقة، وذلك بادعاء الغرب
عدم وجود عقلانية إلا في الفكر الغربي، وغياب الحرية السياسية إلا في ظل
الديمقراطية الغربية، واستحالة تحقق الاقتصاد الناجح إلا في الرأسمالية.

بناءً على ما سبق، يبرز لنا دعوى الغرب احتكار الحقيقة، واعتقاده امتلاكها
في كل مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، وغيرها من
المجالات. وتالياً، تتوضح لنا قضية «المرجعية الأوروبية» التي توجه وتجمع كثيراً
من الخطوات المنهجية السابقة.

وعليه، فقد أدى ذلك إلى ثقة مبالغ فيها في نفوس الباحثين الأوروبيين
بمصادره وأفكارهم، وتبعهم في ذلك بعض المنخدعين من العرب والمسلمين.
كما أدى ذلك إلى تحقير المصادر العربية الإسلامية وعدم الاطمئنان إليها والرجوع
في كل شيء إلى المصادر الغربية، والوثوق بها ولو كانت غير دقيقة.

الخاتمة

في الأخير نعتقد أننا أثبتنا بمنهج تحليلي استنباطي نقدي الخطوات المنهجية
للتغريب التي تتخفى في كثير من الأحيان وراء ستار المنهج العلمي والموضوعية

1- نجيب العقيقي، المستشرقون، ج3، ص 335.

وحرية الفكر... وقد أثبتنا أن هذه الخطوات أو المصطلحات في حد ذاتها تصبح جزءاً من مناهج التغريب لتميرير كثير من النتائج والأحكام على أنها حقائق لا نقاش فيها.

كما ثبت لنا من تحليل مناهج التغريب والغزو الفكري أنها مناهج جزئية، لأنها وسائل تستخدم بطرق مختلفة ونتائجها ليست بالضرورة صحيحة ويقينية، هذا إذا استخدمت بشكل جيد؛ إذ حتى النتائج العلمية نسبية، فما بالك إن كانت في ميدان العلوم الإنسانية؟

لقد سقط، بوعي أو من دون وعي، بعض مفكرينا في الرؤية الاستشراقية، وأصبحوا يمثلون أطروحاتها ويدافعون عن تلك المناهج من دون إدراك خفايا أبعادها، والأغراض التي تستخدم لأجلها. ولعلّ ازدواجية المعايير التي يتعامل بها الغرب مع قضايا العالم العربي خصوصاً، والإسلامي عمومًا، هي دليل آخر على تحكم الرؤية الاستشراقية الاستعمارية في توجيه الفكر الغربي، وخصوصاً في مؤسسات اتخاذ القرار.

إن تلك الخطوات المنهجية تُسيء إلى المنهج العلمي الزهّي؛ لأنّ المناهج العلمية ما هي إلا وسائل، ويمكن أن تستغل بشكل يخالف وظيفتها الحقيقية، كما يثبت العلم أنّ انعدام الموضوعية لدى الباحثين يفقد مناهجهم قيمتها ولو كانت علمية. وإننا لا نعفي أنفسنا من المسؤولية؛ إذ إنّ التخلف الحضاري الذي تعيشه أمتنا يزيد من احتقار الآخر لنا وشعوره بالقوة والزهو، في مقابل مظاهر التشرذم والتناحر التي تعيشها أمتنا، والصراع المذهبي والعسكري الذي فرض على شعوبنا، وهو دليل على تغلغل قوى الشر في تآزيم الأوضاع، وتحويل الاختلاف في الرأي - الذي هو من طبائع البشر - إلى خلاف في كل شيء، ما وُلد التعصب والتشدد، ورفض كل طرف للآخر في الأمة الواحدة.

إنّ قيام المفكرين والعلماء، والمثقفين عمومًا، بتصحيح الأوضاع يُصبح من الأولويات قبل أن نطالب الآخرين بإنصافنا، ومع ذلك فنحن مطالبون بتشجيع المنصفين من الغربيين الذين يُقدّمون رؤية موضوعية منصفة عن ثقافتنا، وهم أكثر لا شك في ذلك، لكنّ دعمهم من دولنا سيجعل صوتهم مسموعًا، وتأثيرهم أكثر على شعوبهم، وتاليًا على المؤسسات الرسمية وأصحاب القرار في بلدانهم.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربيّة

- أمين، سمير، التّمرّكز الأوربيّ نحو نظريّة للثقافة، لا ط.، الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، 1992م.
- بوليتزر، جورج وآخرون، أصول الفلسفة الماركسيّة (جزءان)، ترجمة شعبان بركات، لا ط.، بيروت-صيدا، المكتبة العصريّة، لا تاريخ.
- جيب، هاميلتون، الاتّجاهات الحديثة في الإسلام، تعريب جماعة من الأساتذة، ط1، بيروت، المكتب التجاريّ للطباعة، 1961م.
- دي بور، ج. ، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمّد عبد الهادي أبو ريده، ط5، بيروت، دار النهضة العربيّة، 1981م.
- ديكارت، رينه، مقالة الطريقة، ترجمة جميل صليبا، لا ط.، بيروت، لا ناشر، 1953م.
- رينان، أرنست، ابن رشد والرّشديّة، تعريب عادل زعيتر، لا ط.، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبيّ وشركاؤه، 1957م.
- سعيد، إدوارد، الاستشراق، تعريب كمال أبي ديب، ط2، بيروت، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، 1984م.
- العروي، عبد الله، الأديولوجيا العربيّة المعاصرة، تعريب محمّد عيتاني، ط4، بيروت، دار الحقيقة، 1979م.
- العروي، عبد الله، العرب والفكر التّاريخيّ، لا ط.، بيروت دار الحقيقة، 1973م.
- العقيلي، نجيب، المستشرقون، ط4، القاهرة، دار المعارف، 1981م.
- القرضاويّ، يوسف، الحلول المستوردة وكيف جَنّت على أُمَّتنا، ط12، بيروت، مؤسّسة الرسالة، 1987م.
- كانط، إيمانويل، تأسيس ميتافزيقا الأخلاق، ترجمة محمّد فتحي الشّنيطي، ط2، بيروت، دار النهضة العربيّة، 1970م.
- لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط2، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، لا تاريخ.

- مجموعة من الأساتذة، مناهج المستشرقين في الدراسات العربيّة الإسلاميّة (جزأين)، لا.ط.، تونس، المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، 1985م.
- مروّة، حسين، التّزعات المادّيّة في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة، ط5، بيروت، دار الفارابي، 1985م.

المصادر والمراجع الفرنسيّة

- Malek Ben Nabi, *L'œuvre Des orientalistes son Influence sur la pensée Islamique*, université d'Alger, S.D, 24 pages, Mosquée des étudiants de l'université d'Alger.

الندوات والمجلّات

- الخطّة الشّاملة للثقافة العربيّة (مجموعة ندوات شاملة)، ثلاثة مجلّدات كلّ مجلّد بأقسامه، نشر المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، 1986م.
- ندوة حول علم الاجتماع (نحو علم اجتماع عربيّ)، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1986م.
- وقائع ندوة همبورغ، العلاقات بين الحضارتين العربيّة والأوروبيّة، تونس، الدّار التّونسيّة للنّشر، 1985م.
- الثّقافة، وزارة الثّقافة والسّياحة، الجزائر، العدد49، فيفري، 1985م.